باب السائحِ والصائغِ

قالَ دَبشَليمُ الملِكِ لبيْدَبا الفيْلسوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المَثَلَ فاضرِبْ لي مثَلَ الذي يَضَعُ المعرُوفَ في غيرِ موْضِعهِ ويَرْجُو الشُّكْرَ عليْهِ.

قال الفَيْلسُوفُ: أيها الملِكُ! إنّ طَبائعَ الخَلْقِ مُخْتلِفةٌ وليْسَ ممَّا خلَقهُ الله في الدُّنْيا ممَّا يَمْشي على أرْبعٍ أوْ على رِجْليْنِ أوْ يَطيرُ بجَناحَيْنِ شيءٌ هوَ أفضَلُ منَ الإنْسانِ، ولكِنْ منَ النَّاسِ البَرُّ والْفاجِرُ، وقدْ يكونُ في بعْضِ البَهائمِ والسِّباعِ والطَّيْرِ ما هوَ أوْفَى منهُ ذِمّةً وأشدُّ مُحاماةً على حَرَمَهِ وأشْكَرُ لِلْمعرُوفِ وأقْوَمُ بهِ، وحينئذٍ يجِبُ على ذَوِي العقْلِ منَ المُلوكِ وغيرِهِمْ أنْ يَضَعُوا مَعْرُوفَهُمْ مَواضِعَهُ ولا يُضَيِّعُوهُ عندَ منْ لا يَحْتَمِلُهُ ولا يقُومُ بِشُكْرِهِ، ولا يَصْطَنِعُونَ أحداً إلاّ بعدَ الخِبْرَةِ بطَرائقهِ والمعرِفةِ بوَفائهِ وموَدَّتهِ وشُكْرِه، ولا يَنبغي أنْ يَخْتصُّوا بذلكَ قرِيباً لقَرابَتهِ إذا كانَ غيرَ مُحْتمِلٍ للصَّنِيعَةِ، ولا أن يَمْنَعُوا مَعْرُوفَهمْ ورِفْدَهُمْ[1] للْبَعيدِ إذا كانَ يَقِيهِمْ بنفْسهِ وما يَقْدِرُ عليهِ لأنهُ يكونُ حينئذٍ عارِفاً بحَقِّ ما اصْطُنِعَ إليهِ مُؤَدِّياً لِشُكرِ ما أُنْعِمَ عليهِ مَحْمُوداً بالنُّصْحِ مَعْرُوفاً بالخَيرِ، صَدُوقاً عارِفاً مُؤْثِراً لحَمِيدِ الفِعالِ والقَوْلِ، وكذلكَ كلُّ مَنْ عُرِفَ بالخِصالِ المَحْمُودَةِ ووُثِقَ منهُ بها كانَ لِلمعْرُوفِ موْضِعاً ولتَقْرِيبهِ واصْطِناعهِ أهْلاً.

«فإنَّ الطَّبيبَ الرَّفيقَ الْعاقِلَ لا يَقْدِرُ على مُداواةِ المرِيضِ إلاّ بعْدَ النَّظَرِ

---

(١) الرِّفْد: العطاء.

إليْه والجَسِّ لعُرُوقِهِ ومَعْرِفَةِ طَبِيعتهِ وسبَبِ علَّتهِ، فإذا عَرَفَ ذلكَ كلَّهُ حقَّ معْرِفَتهِ أقْدَمَ على مُداواتهِ. فكذلكَ الْعاقلُ لا ينْبغي لهُ أنْ يَصْطَفي أحداً ولا يَسْتخلِصَهُ إلاّ بعدَ الخِبْرَةِ، فإنّ مَنْ أقدَمَ على مشْهُورِ العَدالةِ منْ غيرِ اخْتِيارٍ كانَ مُخاطِراً في ذلكَ ومُشْرِفاً منهُ على هَلاكٍ وفَسادٍ، ومعَ ذلكَ رُبَّما صَنَعَ الإنْسانُ المعرُوفَ معَ الضَّعيفِ الذي لمْ يُجرِّبْ شُكْرَهُ ولمْ يَعرِفْ حالَهُ في طَبائعهِ فيقُومُ بشُكْرِ ذلكَ ويُكافىءُ عليهِ أحْسَنَ المكافأة، ورُبما تَحذَّرَ العاقلُ منَ النّاسِ ولمْ يأمَنْ على نفْسهِ أحداً منهمْ، وقدْ يأخُذُ ٱبْنَ عِرْسٍ فيُدْخِلُهُ في كُمِّه ويُخْرِجُه منَ الآخَرِ كالذي يَحْمِلُ الطَّائرَ على يدهِ فإذا صادَ شيئاً انتَفَعَ بهِ وأطعَمَهُ منهُ، وقدْ قيلَ لا ينبغي لِذي العقْلِ أنْ يَحْتقِرَ صَغيراً ولا كبيراً منَ النّاسِ ولا منَ البَهائمِ، ولكنّهُ جَدِير بأنْ يَبلُوَهُمْ ويكونَ ما يَصْنَعُ إليهِمْ على قَدَرِ ما يَرَى منهمْ وقدْ مضَى في ذلكَ مثلٌ ضرَبهُ بعْضُ الحُكماءِ.

قال الملِكُ: وكيفَ كانَ ذلك؟

قال الفيْلَسُوفُ: زعَموا أنّ جَماعةً احتَفَرُوا رَكِيّةً[1] فوَقَعَ فيها رجُلٌ صائغٌ وحيَّةٌ وقِرْدٌ وبَبْرٌ[2] ومَرَّ بهمْ رُجلٌ سائحٌ فأشْرَفَ على الرَّكِيّةِ فبَصُرَ بالرَّجُلِ والحيَّةِ والقِرْدِ والبَبْرِ ففَكَّرَ في نفْسهِ وقال: لسْتُ أعمَلُ لآخرَتي عمَلاً أفضَلَ مِنْ أنْ أُخلصَ هذا الرَّجُلَ منْ بينِ هؤُلاءِ الأعدَاءِ. فأخذَ حَبْلاً وأدْلاَهُ إلى البئرِ فتَعلَّقَ بهِ القِرْدُ لِخفَّتهِ فخرجَ، ثمَّ أدْلاهُ ثانية فالْتَفَّت بهِ الحيّة فخرَجَتْ، ثمَّ أدْلاَهُ الثّالثةَ فتَعلّقَ به البَبْرُ فأخرَجَهُ، فشَكَرْنَ لهُ صَنِيعَهُ وقُلْنَ لهُ: لا تُخْرِجْ هذا الرَّجُلَ منَ الرَّكِيّةِ فإنهُ ليسَ شيءٌ أقلَّ شُكْراً منَ الإنسانِ ثمَّ هذا الرَّجُلَ خاصةً، ثمَّ قالَ لهُ القِرْدُ: إنّ مَنزِلي في جبَلٍ قريبٍ منْ مدِينةٍ يُقال لها نِوَادَرَخْتُ فقالَ لهُ البَبْرُ: أنا أيضاً في أجَمَةٍ إلى جانبِ تلكَ

(١) ركية: بئراً.
(٢) البَبْر: سَبُع.

المدِينةِ، قالتِ الحيّةُ: وأنا أيضاً في سُورِ تلْكَ المدينةِ فإنْ أنتَ مَرَرْتَ بِنا يوْماً منَ الدَّهْرِ واحْتَجْتَ إِلَيْنا فَصَوِّتْ عليْنا حتى نأتِيَكَ فنَجْزِيكَ بما أسْدَيْتَ إِلَيْنا منَ المعْرُوفِ.

فلمْ يَلْتفِتِ السَّائحُ إِلى ما ذَكَرُوا لهُ منْ قِلّةِ شُكْرِ الإِنْسانِ وأدْلى الحبْلَ فأخرَجَ الصَّائغَ فسجَدَ لهُ وقال: لقدْ أوْلَيْتَني معْرُوفاً فإِن مَرَرْتَ يوْماً منَ الدَّهْرِ بمدينةِ نِوَادَرَخْتَ فاسألْ عنْ مَنزِلي فأنا رجُلٌ صائغٌ واسْمِي فُلانٌ لَعلّي أكافِئُكَ بما صَنَعْتَ إِليَّ منَ المعرُوفِ، فانْطلَقَ الصائغ إِلى مدِينتهِ وانْطَلَقَ السَّائحُ إِلى وِجْهتهِ فعَرَضَ بعدَ ذلكَ أنّ السائحَ اتَّفَقتْ لهُ حاجةٌ إِلى تلْكَ المدينةِ فانْطلقَ فاستقبَلَهُ القِرْدُ فسَجَدَ لهُ وقَبَّلَ رِجْلَيْهِ واعتَذَرَ إِليهِ وقالَ: إِنَّ القُرُودَ لا يَمْلِكُونَ شيئاً ولكنِ اقعُدَ حتى آتِيَكَ... وانْطلَقَ القِرْدُ وأتاهُ بِفاكهةٍ طيِّبةٍ فوَضَعَها بينَ يديْهِ فأكَلَ منها حاجتَهُ.

ثمَّ إِنَّ السَّائحَ انْطلَقَ حتى دَنا منْ بابِ المدينةِ فاسْتقبلَهُ البَبْرُ فخرَّ لهُ ساجِداً وقالَ لهُ: إِنكَ قدْ أوْلَيْتَني مَعْروفاً فاطْمئنَّ ساعةً حتى آتِيَكَ، فانْطلَقَ البَبْرُ فدَخَلَ في بعضِ الحِيطانِ إِلى بنْتِ الملكِ فقتلَها وأخَذَ حُلِيَّها فأتاهُ بهِ منْ غيرِ أنْ يَعْلَمَ السَّائحُ مِنْ أيْنَ هيَ. فقال في نفْسهِ: هذهِ البَهائمُ قدْ أوْلَتْني هذا الجَزاءَ فكيْفَ لَوْ أتَيْتُ إِلى الصَّائغِ فإِنهُ إِنْ كانَ مُعسِراً لا يَمْلِكُ شيئاً فسَيبيعُ هذا الحُليَّ فَيسْتَوْفِي ثمنَهُ فيُعْطيني بعْضَهُ ويأخُذُ بعْضَهُ وهوَ أعرَفُ بثمَنِهِ، فانْطلَقَ السَّائحُ فأتى إِلى الصَّائغِ فلمَّا رآهُ رَحَّب بهِ وأدْخَلَهُ إِلى بيْتهِ، فلمَّا بَصُرَ بالحُليِّ معهُ عرَفَهُ وكانَ هوَ الذي صاغَهُ لابْنةِ الملِكِ. فقالَ الصَّائغَ: اطْمئِنَّ حتى آتيَكَ بِطَعامٍ فلسْتُ أرْضَى لكَ ما في البيْتِ.

ثمَّ خرَجَ وهوَ يقُولُ: قدْ أصَبْتُ فُرْصَتي، أريدُ أنْ أنْطلِقَ إِلى الملكِ وأدُلَّهُ على ذلكَ فتَحسُنَ مَنزِلَتي عندَهُ، فانطلَقَ إِلى بابِ الملكِ فأرْسَلَ إِليْهِ أنَّ الذي قَتَلَ ابْنتَكَ وأخَذَ حُلِيَّها عنْدِي، فأرْسَلَ الملِكُ وأتَى بالسَّائحِ، فلمَّا نَظَرَ

الحُليَّ معهُ لمْ يُمْهِلْهُ وأمَرَ بهِ أنْ يُعذَّبَ ويُطافَ بهِ في المدِينةِ ويُصْلَبَ، فلمَّا فعَلُوا به ذلكَ جعَلَ السَّائحُ يَبكي ويقُولُ بأعْلى صَوْتهِ: لوْ أني أطَعْتُ القِرْدَ والحيَّةَ والبَبْرَ فِيما أمَرْتَني بهِ وأخبَرْتَني منْ قِلَّةِ شُكْرِ الإنسانِ لمْ يَصِرْ أمرِي إلى هذا البَلاءِ وجعَلَ يُكرِّرُ هذا القوْلَ، فسمِعَتْ مَقالتَهُ تلْكَ الحيّةُ فخرَجَتْ منْ جُحْرِها فعرَفتْهُ فاشتَدَّ عليْها أمرُهُ فَجعَلتْ تَحْتالُ في خَلاصِه، فانْطلَقت حتى لَدَغَتِ ابْنَ الملكِ فدَعا الملكُ أهْلَ العِلْمِ فرَقَوْهُ لِيَشْفُوهُ فلمْ يُغْنُوا عنهُ شيئاً.

ثمَّ مضَتِ الحيَّةُ إلى أختٍ لها منَ الجنِّ فأخبرَتْها بما صَنَعَ السَّائحُ إليْها منَ المعْرُوفِ وما وَقَعَ فيهِ فرَقَّتْ لهُ وانْطلَقتْ إلى ابْنِ الملكِ وتَخايَلَتْ لهُ[1] وقالتْ: ابنكَ لا تَبرَأُ حتى يَرْقِيَكَ هذا الرَّجلُ الذي قدْ عاقَبْتُمُوهُ ظُلْماً، وانْطلقَتِ الحيَّةُ إلى السَّائحِ فدَخلتْ إليْهِ السِّجْنَ وقالتْ لهُ: هذا الذي كنتُ نهَيْتُكَ عنهُ منِ اصْطِناعِ المعْرُوفِ إلى هذا الإنْسانِ ولمْ تُطِعْني، وأتتْه بوَرَقٍ يَنْفَعُ منْ سُمِّها وقالتْ لهُ: إذا جاؤُوا بكَ لتَرْقِيَ ابْنَ الملكِ فاسْقِهِ منْ ماءِ هذا الوَرَقِ فإنهُ يَبرَأ، وإذا سألكَ الملِكُ عنْ حالِكَ فاصْدُقْهُ فإنكَ تَنْجُو إنْ شاءَ الله تعالى، وإنّ ابْنَ الملكِ أخبَرَ أباهُ أنهُ سَمِعَ قائلاً يقُولُ: إنكَ لنْ تَبرَأ حتى يَرْقِيَكَ هذا السَّائحُ الذِي حُبِسَ ظُلْماً، فدَعا الملكُ بالسَّائحِ وأمَرَهُ أنْ يَرْقِيَ ولَدَهُ فقالَ: لا أحْسِنُ الرَّقْيَ ولكنِ اسْقِهِ منْ ماءِ هذهِ الشَّجرَةِ فيَبْرَأَ بإذْنِ الله تعالى، فسَقاهُ فَبرِىءَ الغُلامُ فَفرِحَ الملكُ بذلكَ وسألَهُ عنْ قِصَّتهِ فأخْبرَهُ، فشكَرَهُ الملكُ وأعْطاهُ عَطِيَّةً حسَنةً وأمَرَ بالصَّائغِ أنْ يُصْلَبَ فَصلَبُوهُ لِكَذبِهِ وانْحِرافِه عنِ الشُّكْرِ ومُجازاتِه الفِعْلَ الجَميلَ بالقَبيحِ.

ثمَّ قال الفيلَسُوفُ للْملِكِ: فَفي صَنيعِ الصَّائغِ بالسَّائحِ وكُفْرِه[2] لهُ بعْدَ

(١) تخايلت: تشبهت.

(٢) الكفر: جحود النعمة.

اسْتِنْقاذِهِ إِيَّاهُ وشُكْرِ البَهائمِ لهُ وتَخْلِيصِ بعضِها إِيَّاهُ عِبرَةٌ لمنِ ٱعْتَبَرَ، وفكْرَةٌ لمنِ افتَكَرَ، وأدَبٌ في وَضْعِ المَعْرُوفِ والإحْسانِ عنْدَ أهلِ الوَفاءِ والكَرَمِ، قَرُبُوا أوْ بَعُدُوا لِمَا في ذلكَ منْ صَوابِ الرَّأيِ وجلْبِ الخَيرِ وصَرْفِ المَكْرُوهِ.